

لا تعدّليه فإنّ العذل يولعه

هو أبو الحسن علي بن زريق البغدادي (ت ٢٠٤ هـ)، كانت له ابنة عم أحبها حباً عميقاً صادقاً، ولكن أصابته الفاقة وضيق العيش، فأراد أن يغادر بغداد إلى الأندلس طلباً للغنى، وذلك بمدح أمرائها وعظمائها، ولكن صاحبته تشبّثت به، ودعته إلى البقاء حباً له، وخوفاً عليه من الأخطار، فلم ينصت لها، ونفّذ ما عزم عليه، وقصد الأمير أبا الخير عبد الرحمن الأندلسي في الأندلس، ومدحه بقصيدةٍ بليغةٍ جداً، فأعطاه عطاءً قليلاً، فقال ابن زريق - والحزن يحرقه-:

"إنا لله وإنا إليه راجعون، سلكت القفار والبحار إلى هذا الرجل، فأعطاني هذا العطاء القليل؟

ثم تذكّر ما اقترفه في حق بنت عمه من تركها، وما تحمّله من مشاقٍ ومتاعب، مع لزوم الفقر، وضيق ذات اليد، فاعتلّ غمّاً ومات .

وقال بعض من كتب عنه إنّ عبد الرحمن الأندلسي أراد أن يختبره بهذا العطاء القليل ليعرف هل هو من المتعفين أم الطامعين الجشعين، فلما تبينّت له الأولى سأل عنه ليجزل له العطاء، فتفقده في الخان الذي نزل به، فوجدوه ميتاً، وعند رأسه رقعة مكتوب فيها هذه العينية .  
فبكاه عبد الرحمن الأندلسي بكاءً حاراً .

وعينية ابن زريق من عيون الشعر ... قال عنها ابن حزم الأندلسي : "من تختم بالعقيق، وقرأ لأبي عمرو وتفقه للشافعي وحفظ قصيدة ابن زريق فقد استكمل الظرف"

ولا يعرف لابن زريق غير عينيته هذه، التي حظيت باهتمام كبير من الشعراء والأدباء على مر العصور، فعارضها أبو بكر العيدي (ت ٥٨٠ هـ) بقصيدة من ٤٩ بيتاً مطلعها :  
لي بالحجاز غرامٌ لست أدفعه ..... ينقاد قلبي له طوعاً وبتبعه

وعارضها أبو العباس أحمد بن جعفر بن أحمد الديلمي (ت ٦٢١ هـ) بقصيدة من ٣١ بيتاً مطلعها :  
يروم صبراً وفرطاً الوجدِ يمنعه ..... سلوه، ودواعي الشوق تردعه

لا تعدّليه فإنّ العذل يُولِغُهُ

قَدْ قَلتِ حَقًّا وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ

جَاوَزتِ فِي لَوْمَةٍ حَدًّا أَصْرَبِهِ

مِنْ حَيْثُ قَدْرتِ أَنَّ اللُّومَ يَنْفَعُهُ

فَاسْتَعْمَلِي الرِّفْقَ فِي تَأْنِيهِ بَدَلًا

مِنْ عَذْلِهِ فَهُوَ مُضْنَى القَلْبِ مُوجَعُهُ

قَدْ كَانَ مُضْطَلَعًا بِالْحَطْبِ يَحْمِلُهُ

فَصُلِّعَتْ بِحُطُوبِ الدَّهْرِ أَضْلَعُهُ

يَكْفِيهِ مِنْ لَوْعَةِ التَّشْتِيتِ أَنَّ لَهُ

مِنْ النُّوَى كُلِّ يَوْمٍ مَا يُرْوَعُهُ

مَا آبَ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا وَأَزْعَجَهُ

رَأْيِي إِلَى سَفَرٍ بِالْعَزْمِ يَزْمَعُهُ

كَأَنَّمَا هُوَ فِي حِلِّ وَفُرْتَحِلِ

مُؤَكَّلٍ بِفَضَاءِ اللَّهِ يَذْرَعُهُ

إِنَّ الزَّمَانَ أَرَاهُ فِي الرِّحِيلِ غَيِّ

وَلَوْ إِلَى السَّنَدِ أَضْحَى وَهُوَ يُزْمَعُهُ

تَأْبَى المَطَامِعُ إِلَّا أَنْ تُجَشِّمَهُ

لِلرِّزْقِ كَدًّا وَكَمْ مِمَّنْ يُوَدِّعُهُ

وَمَا مُجَاهِدَةُ الإِنْسَانِ وَاصِلَةٌ

رِزْقًا وَلَا دَعَاةُ الإِنْسَانِ تَقْطَعُهُ

قَدْ وَزَعَ اللَّهُ بَيْنَ الخَلْقِ رِزْقَهُمْ

لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ مِنْ خَلْقٍ يُضَيِّعُهُ

لَكِنَّهُمْ كَلَّفُوا حِرْصًا فَلَسْتَ تَرَى

مُسْتَرْزِقًا وَسِوَى الْغَايَاتِ تُقْنَعُهُ

وَالْحِرْصُ فِي الرِّزْقِ وَالْأَرْزَاقِ قَدْ قُسِمَتْ

بِغْيٍ إِلَّا إِنَّ بَغْيَ الْمَرْءِ يَصْرَعُهُ

وَالدَّهْرُ يُعْطِي الْفَتَى مِنْ حَيْثُ يَمْنَعُهُ

إِرْثًا وَيَمْنَعُهُ مِنْ حَيْثُ يُطْمَعُهُ

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمْرًا

بِالْكَرْخِ مِنْ فَلَكِ الْأَزْزَارِ مَطْلَعُهُ

وَدَّعْتُهُ وَبُودَيْي لَوْ يُودِعْنِي

صَفْوَةَ الْحَيَاةِ وَأَيِّ لَا أودِعُهُ

وَكَمْ تَشَفَّعَ فِي أَنْ لَا أَفَارِقَهُ

وَلِلضَّرُورَةِ حَالٍ لَا تُشَفِّعُهُ

وَكَمْ تَشَبَّثَ بِي يَوْمَ الرَّحِيلِ ضَحَى

وَأَدْمَعِي مُسْتَهْلَاتٍ وَأَدْمَعُهُ

لَا أَكْذِبُ اللَّهَ ثَوْبُ الصَّبْرِ مُنْخَرَقٌ

عَنِّي بِفُرْقَتِهِ لَكِنْ أَرْقَعُهُ

إِنِّي أَوْسَعُ عُدْرِي فِي جَنَائِبِهِ

بِالْبَيْنِ عَنْهُ وَجُرْمِي لَا يُوسِعُهُ

رَزَقْتُ مُلْكَاً فَلَمْ أَحْسِنِ سِيَاسَتَهُ

وَكُلُّ مَنْ لَا يُسُوسُ الْمُلْكََ يَخْلَعُهُ

وَمَنْ غَدَا لَابِسًا ثَوْبَ النَّعِيمِ بِلا

شَكَرٍ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْزِعُهُ

إِعْتَصَمْتُ مِنْ وَجْهِ حِلِّي بَعْدَ فُرْقَتِهِ

كَأَسَا أَجْرَعُ مِنْهَا مَا أَجْرَعُهُ

كَمْ قَائِلٍ لِي ذُقْتُ الْبَيْنَ قُلْتُ لَهُ

الذَّنْبُ وَاللَّهِ ذَنْبِي لَسْتُ أَدْفَعُهُ

أَلَا أَقَمْتَ فَكَانَ الرُّشْدُ أَجْمَعُهُ

لَوْ أَنَّي يَوْمَ بَانَ الرُّشْدُ اتَّبَعُهُ

إِنِّي لَأَقْطَعُ أَيَّامِي وَأَنْفَقُهَا

بِحَسْرَةٍ مِنْهُ فِي قَلْبِي تُقْطِعُهُ

بِمَنْ إِذَا هَجَعَ النُّوَامُ بِتُّ لَهُ

لَوْعَةٍ مِنْهُ لَيْلِي لَسْتُ أَهْجَعُهُ

لَا يَطْمَئِنُّ جَنَابِي مَضْجَعُ وَكَذَا

لَا يَطْمَئِنُّ لَهُ مُدُّ بِنْتٍ مَضْجَعُهُ

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الدَّهْرَ يَفْجَعُنِي

بِهِ وَلَا أَنَّ بِي الْأَيَّامَ تَفْجَعُهُ

حَتَّى جَرَى الْبَيْنُ فِيمَا بَيْنَنَا بِيَدِ

عَسْرَاءٍ تَمْنَعُنِي حَظِّي وَتَمْنَعُهُ

قَدْ كُنْتُ مِنْ رَبِّبِ دَهْرِي جَارِعًا فَرِقًا

فَلَمْ أَوْقِ الَّذِي قَدْ كُنْتُ أَجْرَعُهُ

بِاللَّهِ يَا مَنْزِلَ الْعَيْشِ الَّذِي دَرَسْتَ

آثَارُهُ وَعَفَّتْ مُدَّ بِنْتُ أَرْبَعُهُ

هَلْ الزَّمَانُ مَعِيدٌ فِيكَ لَدُنَّا

أُمُّ اللَّيَالِي الَّتِي أَمْصَتَهُ تُرْجِعُهُ

فِي ذِمَّةِ اللَّهِ مِنْ أَصْبَحَتْ مَنْزِلُهُ

وَجَادَ غَيْثٌ عَلَى مَغْنَاكَ يُمِرُّعُهُ

مَنْ عِنْدَهُ لِي عَهْدٌ لَا يُضَيِّعُهُ

كَمَا لَهُ عَهْدٌ صِدْقٍ لَا أُضَيِّعُهُ

ُ

وَمَنْ يُصَدِّعُ قَلْبِي ذِكْرُهُ وَإِذَا

جَرَى عَلَى قَلْبِهِ ذِكْرِي يُصَدِّعُهُ

لَأَصْبِرَنَّ عَلَى دَهْرٍ لَا يُمْتَنِعُنِي

بِهِ وَلَا بِي فِي حَالٍ يُمْتَنِعُهُ

عِلْمًا بِأَنَّ إِصْطِبَارِي مُعَقَّبٌ فَرَجًا

فَأَضِيقُ الْأَمْرَ إِنْ فَكَّرْتَ أَوْسَعُهُ

عَسَى اللَّيَالِي الَّتِي أَضْنَتْ بِفُرْقَتَنَا

جِسْمِي سَتَجْمَعُنِي يَوْمًا وَتَجْمَعُهُ

وَإِنْ تَعْلُ أَحَدًا مِنَّا مَنِيَّتُهُ

فَمَا الَّذِي بِقَضَاءِ اللَّهِ يَصْنَعُهُ